خليل مردم بك

وكتابه في الشاعر الفرزدق

لأستاذ جليل

يقول الأستاذ : « وقد يداخل (الفرزدق) في كلامه ويعاظل في تراكيبه ، ويقدم ويؤخر ويتجوز في استعمال الوحشي والغريب والإقواء ، وما هو أشبه باللحن ؛ وذلك لثقته بنفسه واعتماده على سليقته ولقساوة في طبعه . قال كردين : (سقطُ الفرزدق شيء يمتحن الرجال فيه عقولهم حتى يستخرجوه) . سمعه ابن أبي إسحق الحضرمي مرة ينشد :

وعضٌّ زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

فقال له ابن أبي إسحق : « على أي شيء ترفع أو مجلف ؟ قال : على ما يسوءك وينوءك[1] ... »

والبيت (المجلف) من شواهد الكشاف في مكانين : « فشربوا منه إلا قليلاً منهم . وقرأ أبيّ والأعمش إلا قليل بالرفع ، وهذا من ميلهم مع المعنى والإعراض عن اللفظ جانباً ، وهو باب جليل من علم العربية ؛ فلما كان معنى فشربوا منه في معنى فلم يطيعوه حمل عليه كأنه قيل فلم يطيعوه إلا قليل منهم ، ونحوه قول الفرزدق (لم يدع من المال إلا مسحت[2] أو مجلف) كأنه قال : « لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف » وقال في سورة طه : « قرئ (فيسحتكم) والسحت لغة أهل الحجاز ، والإسحات لغة أهل نجد وبني تميم ، ومنه قول الفرزدق (إلا مسحتا أو مجلف) في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه ... »

(١) أصله من المثل : (ترك ما يسوءه وينوءه) قال الميداني : « كان المحبوبي ذا يسار فلما حضرته الوفاة أراد أن يوصي فقيل له : ما نكتب ؟ فقال : اكتبوا : ترك فلان بعني نفسه ما يسوءه وينوءه ما لا يأكله ورثته ويبقى عليه وزره » أراد يسوءه ويثيقه أي يثقله وقال ينوءه لأجل يسوءه قال الصحاح : ليزدوج الكلام كما يقال إني لآتيه الغدايا والعشايا والغداة لا تجمع على غدايا

(٢) يروى مسحت بالرفع والنصب

وفي (الخصائص) : « قولهم ودع الشيء يدع إذا سكن فاتدع متبوع متبع ، وعليه أنشد بيت الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو مجلف

فمعنى لم يدع بكسر الدال لم يثبت ، والعائد منها إليه محذوف للعلم بموضعه وتقديره لم يدع فيه ، وهذا أمر ظاهر »

وأورد الأستاذ أمثلة مما أشار إليه كردين ، وشغلت به الأئمة في القديم ، وقد اجتزأنا نحن من تلك الدواهي بواحدة ...

* * *

الفرزدق هو — كما قال الأستاذ — في « صحة اللغة وفصاحة الأسلوب » وقد رويت القول من قبل . وأشعار أبي فراس مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ ، وأبياته في المصنفات اللغوية هي من أوائل الشواهد . فلو رجع إليها الفاضل عبد الله الصاوي الذي (عني بجمع ديوان الفرزدق وطبعه والتعليق عليه) في شرح (الأوابد) في بيت الفرزدق :

لن تدركوا كرمي بلؤم أبيكم وأوابدي بتنحل الأشعار

ما كان قال : « شبه القصائد بأوابد الوحش » . وأوابد الوحش نُفّرها ، ومثل هذا الشرح يذل البيت ويزيغ القارئ — فلو رجع إلى اللسان والأساس لوجد الأول يقول : « يقال للشوارد من القوافي أوابد . قال الفرزدق : لن تدركوا ... وقافية شرود عائرة سائرة في البلاد » ووجد الثاني يقول : « أوابد الشعر التي لا تُشاكل جودة قال الفرزدق : لن تدركوا ... » وفي الصحاح : « يقال للشوارد من القوافي أوابد قال الفرزدق : لن تدركوا ... » وفي التاج : « الأوابد القوافي الشرد مجاز . قال الفرزدق : لن تدركوا ... »

ولو رجع العلامة اللغوي المشهور الشيخ إبرهيم اليازجي إلى كتب الأدب واللغة ما كان قال في مجلته (الضياء) السنة (٣) الصفحة ٤٨٥ — : « قال الفرزدق :

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهارا

أراد بقوله يصيح صيغة المتعدي من قولهم انصاح القمر ، فنقل المعنى إلى النهار كما قال البديع : فلما انصاح النهار بجانب ليلي ، ثم

استعمل منـه متعدياً بتجريده من الزيادة ، وهو غير منقول فى هذا المعنى »

فلو رجع الشيخ إلى (إعجاز القرآن) للباقلانى و (ديوان المعانى) للعسكرى و (حماسة البحترى) و (الأغانى) و (نثار الأزهار) لابن منظور صاحب اللسان ، و (الكامل) للمبرد و (أساس البلاغة) و (لسان العرب) و (تاج العروس) لوجد فى هذه الكتب كلها رواية البيت الصحيحة :

والشيب ينهض فى السواد كأنه ليـــل يصيح بجانبيه نهار

ووجد فى اللسان والتاج هذه الفائدة : « . . . عن أبى عبيدة أن جعفر بن سليمان قدم من عند المهدى فبعث إلى يونس بن حبيب فقال : إنى وأمير المؤمنين اختلفنا فى بيت الفرزدق وهو (والشيب) ما الليل والنهار ؟ فقال الليل هو الليل المعروف وكذلك النهار[1] فقال جعفر : زعم المهدى أن الليل فرخ الكروان والنهار فرخ الحبارى . قال أبو عبيدة القول ما قال يونس ؛ وأما الذى ذكره المهدى فهو معروف فى الغريب ولكن ليس هذا موضعه . قال ابن برّى : قد ذكر أهل المعانى أن المعنى على ما قال يونس وإن كان لم يفسره تفسيراً شافياً ، وإنه لما قال : (ليل يصيح بجانبيه نهار) فاستعار للنهار الصياح لأن النهار لما كان آخذاً فى الإقبال والإقدام، والليل آخذ فى الإدبار صار النهار كأنه هازم والليل مهزوم، ومن عادة الهازم أن يصيح على المهزوم. ألا ترى إلى قول الشماخ :

وألقتْ بأرجاء البسيطة ساطعاً من الصبح لما صاح بالليل نفّرا

فقال : « صاح بالليل حتى نفر وانهزم »

وبيت الفرزدق فى قصـيدة مشهورة ناقض بها قصيدة لجرير مطلعها :

لولا الحيـاء لهاجنى استعبار وزرت قبرك والحبيب يزار

وفى قصيدة الفرزدق هذه الأبيات :

إن الملامة مثل ما ذكرت به من تحت ليلتها عليك نوار

وتقول: كيف يميل مثلك للصبا وعليك من سمة الحليم عذار ؟ !

والشيب ينهض فى السواد كأنه ليـــل يصيح بجانبيه نهار[1]

إن الشباب لرائح من باعه والشيب ليس لبائعيـه تجار

فالفعل (يصيح) وماضيه (صاح) أى صات ، و (نهار) مرفوع فاعل يصيح . وللشيخ اليازجى عجائب فى نقد متقدمين وسنعود إلى تبيينها فى وقت

* * *

فى شعر الفرزدق ألفاظ كثيرة فاتت المعجمات التى نعرفها مثل اللسان والتاج وغيرهما . من ذلك (التظاليل والوُهون) وقد وردت الأولى فى قوله :

وظلماء من جرّا نوار سريتها وهاجرة دوّية ما أقيلهـــا

جعلنا عليها دوننا من ثيابنا تظاليل حتى زال عنها أصيلها

وجاءت الثانية فى قوله :

وحبْـل الله حبلك من ينـله فما لعُرى إليه من انفصام

فإنى حامل رجلى ورحلى إليك على الوهون من العظام

والوهون من مصادر وهن وقد ذكروا الوهن بالسكون والحركة . وإنى لأستبعد قصده الوهون بفتح الواو بمعنى الضعيف

وفى العربية ألوف من الألفاظ الجاهلية والإسلامية لم تجلبها كتب اللغة . وقد بينت هذا الأمر المهم فى جريدة (البلاغ) المشهورة منذ خمسة أحوال فى مقال عنوانه : (العربية ، أحاديث فيها) حين أقمت فى القاهرة — قبل المرابطة فى هذا الثغر — وكنت أكتب (أحرر) فى تلك الجريدة

* * *

لما تقدم الغربيون، وتجم فيهم العربانيون وأراد هؤلاء أن يخبروا الأمم العربية والإسلامية الخبرة البليغة ليخدموا دولاتهم فى سياساتها أو لمآرب أخرى ذهبوا إلى مثل (الفرزدق) يستنطقونه ويستهدونه ، والعالم العاقل لا يضل سبيله ، ولا يخطئ حين يختار دليله . وأعمال العربانيين فى هذا المعنى ، شهرتها تغنى عن الإفاضة فيها[2]

(١) روى اللسان البيت فى مكان آخر وجاءت فيه هذه الرواية : الليل ليلكم والنهار نهاركم هذا

(١) روى الكامل البيت ثم قال: فهذا أوضح معنى ، وأعرب لفظ ، وأقرب مأخذ

(٢) خبط عربانيين من خدام السياسة والتضليل المسمى عند المضللين بالتبشير فى مباحث كثيرة لهم ، لا يجرد القوم من فضيلة ذلك الاهتداء والاختبار

ولما كانت المدنية العربية وهمّ عمرو بن بحر (الجاحظ) وعلى بن عبيدة (الريحانى[1]) وعلى بن محمد (أبو حيان التوحيدى) وحبيب بن أوس الطائى (أبو تمام) والوليد بن عبيد (البحترى) واحمد بن الحسين الكندى (المتنبى) ونظراؤهم ، فلما عزم هؤلاء النابغون أن يحذقوا لغتهم ، ويرصنوا أدبهم، بادروا إلى مدرسة (الفرزدق) ، وجثوا بين يديه ، وتأدبوا فى العربية عليه ، ومن صار إلى الينبوع المِدّ ذى السير السلسال وكرع فيه ارتوى ، ومن سمى إلى منجم الألماس[2] ومعدن الذهب رجع جذلان غنياً

وإنى لموقن الإيقان التام أن الأمم العربية يوم ترتقى بعد ثلاث مئة سنة (إن شاء الله تعالى) ستحرث الجاهلية والإسلامية (الأموية) حرثاً ، وستأصلها علماً أصلاً فلا تذر لفظة من ألفاظها — وإنها لكثيرة — شردت عن أصحاب المعجمات إلا اصطادتها ، ولا خبراً مستعجماً إلا ابتحثته ووضحته ، ولا ديواناً لكبير وصغير من الشعراء والشواعر إلا أظهرته . وستكرم دواوين لؤمت طبعاتها ، وسوّد التجار الفجار (أو السماسرة[3]) وجوههم عند الله بتشويه صفحاتها .

وستفتن[4] علماء ذاك الزمان الآتى فى التأليف فى أدب الجاهلية والإسلامية افتناناً . وسيفضّلون العربانيين والأئمة من العربيين السابقين (بذوق) حرّمه الله الأنرنجى المستعرب أى حرمان ، وبذرائع من الطباعة وغير الطباعة لم يحظ بها[1] العالم العربى من قبل . وسيفهم أولئك المرتقون المتقدمون من مثل قول المأمون : « خير الكلام ما شاكل الزمان » مالم يبد للمتعلمين إلى الأدب العربى من العصريين ، والمفقحون يجتلون ما لا يبصره المصاصئون[2]

* * *

لقد بعث الأستاذ المردى (همام بن غالب) فى هذا الوقت و (البعث) حق ، و (الرجعة) عند قوم

إنه اليوم فى القاهرة (الحاضرة اللغوية للأمم العربية) إنه الساعة فى دار (الجامعة المصرية ، جامعة فؤاد الأول) — رحمة الله على الملك العالم[3] — وها هو ذا يخطب (الدكاترة) والأساتذة والتلامذة وهم حافون به . إنه ليهدر بصوت ذى نهيم كنهيم الأسد ، صيّت صهصلق ، وإنا لنسمعه يقول :

أنا همام بن غالب . أنا الفرزدق

أنا أستاذ (الخليل[4]) و (الريحانى[5]) وحبيب

وإنها العربية الجاهلية الإسلامية الأموية خادمة (الكتاب) والتى قد كونت هذا اللسان

إن الناطقين بالضاد فى كل زمان ومكان إلينا لمفتقرون

---

(١) كان أحد البلغاء الفصحاء ، وافر الأدب ، كثير الفضل ، مليح اللفظ ، حسن العبارة ، كاتبا بارعا ، يسلك فى تصنيفاته وتأليفاته طريق الحكمة ، وكان له اختصاص بالمأمون . من الناس من يفضله على الجاحظ فى البلاغة وحسن التأليف . اتفق أهل صناعة الكلام أن متكلمى العالم ثلاثة : الجاحظ وعلى بن عبيدة الريحانى وأبو زيد البلخى ، فمنهم من يزيد لفظه على معناه وهو الجاحظ، ومنهم من يزيد معناه على لفظه وهو الريحانى، ومنهم من توافق لفظه ومعناه وهو أبو زيد (الفهرست ، تاريخ بغداد ، إرشاد الأريب)

(٢) الهمزة واللام فيه أصليتان ، وصاحب القاموس يقول : (ولا تقل ألماس فانه لحن) وفى التاج : قال ابن الأثير أظن الهمزة واللام فيه أصليتين مثلهما فى إلياس وليست — يعنى اللفظة — بعربية

(٣) فى (الفائق) : « قال قيس بن أبى غرزة (رضى الله عنه) . كنا نسمى السماسرة على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأتانا ونحن بالبقيع ، فسمانا باسم هو أحسن منه ، فقال : يا معشر التجار ، فاستمعنا إليه فقال: إن هذا البيع يحضره الحلف والكذب فشوبوه بالصدقة » وطائفة من التجار لا تستأهل تلك التسمية النبوية الكريمة ، فسمهم بالأول

(٤) افتن مثل تفنن ، والافتنان مثل التفنن

---

(١) حظى بالشىء ظفر به . وقد أخطأ الشيخ اليازجى فى تخطئة ذلك وفى الجزء (٢٦٧) من الرسالة الغراء الأقوال الكافية والشافية فى شأن هذا الفعل

(٢) من المجاز : فقحوا وصأصأتم أى أبصروا الحق ولم تبصروه . فقح فتح عينيه ، وصأصأ الجرو : حرك عينيه ولما يفتح

(٣) مثلت ذات يوم — سنة ١٩٤٥ — بين يدى الملك العالم فؤاد، فرحب بعلم هذا الضعيف وأدبه أكرم ترحيب رضوان الله عليه، ولقد أنجدنى (السلامى) وتشد سد النحية الاسلامية بقوله فى الملك عضد الدولة :

وبشرت آمالى بملك هو الورى ودار فى الدنيا ، ويوم هو الدهر

(٤) الخليل بن أحمد والخليل بن مردم

(٥) على الريحانى وأمين الريحانى

أنا همام بن غالب وزميلاى جرير بن عطية[1] وغياث بن غوث فالعلم كل العلم فى أن تعرفونا وتعرفوا الإسلاميين والجاهليين ، والجهل كل الجهل فى أن تنكرونا

أنا الفرزدق ! !

(تصفيق مشتد بدأ به الصديقان الأستاذ أحمد أمين والدكتور عبد الوهاب عزام ، وتبعهما الأستاذ إبراهيم مصطفى وسائر الأساتذة والتلامذة)

حيّا الله أديبنا الكبير الأستاذ المردى وبيّاه بما أحيا لنا (الفرزدق) فى هذا الزمان حتى يخطب فى (الجامعة) خطبته ، ويقول فى الجاهلية والإسلامية مقالته ، ويصدع بالحق . وقيلُ (الفرزدق) هو القيل :

إذا قالت حذامِ فأنصتوها فإن القول ما قالت حذام[1]

* * *

هذه كلمات اقتبست من فضل الأستاذ المردى ، وطاقات اجتنيت من روض أدبه ، أقدمها إليه إعجاباً وإجلالاً وتحية .

(الاسكندرية) (* * *)

* * *

فى الجزء (٣٢٠) : (إني أرى يزيد عند شبابه) وهو إن رأيت...)

(١) قال جرير حين نعى إليه الفرزدق :

فلا وضعت بعد الفرزدق حامل ولا ذات بعل من نساس تعلت !
هو الوافد الميمون والراتق الثأى إذا النعل يوما بالعشيرة زلت

وفى ديوان جرير :

لعمرى لقد أشجى تميما وهدها على نكبات الدهر موت الفرزدق !
عماد تميم كلها ولسانها وناطقها البذاخ فى كل منطق
تفتح أبواب الملوك لوجهه بغير حجاب دونه أو تملق
فتى عاش يبنى المجد تسعين حجة وكان إلى الخيرات والمجد يرتقى

(١) أنصته وأنصت له . وفى حديث طلحة : أنصتونى أنصتونى

الجودة الفائقة ...
والذوق الجميل ...
والثمن المعتدل ...
تلك هى العوامل الثلاثة التى تسير عليها
شركة مصر لنسـج الحرير
عند ما تنتج أفخر أنواع الأقمشة الحريرية . ألحوا فى طلب منتجات
شركة مصر لنسـج الحرير
احدى مؤسسات بنك مصر